المحاضرة االسابعة:

أهم النظريات الحديثة في نهاية التاريخ "فرانسيس فوكوياما"

تعريف "نهاية التاريخ"

إنّ عبارة "نهاية التاريخ" مركبة من مصطلحين "نهاية" و "تاريخ". وفي معجم اللغة العربية المعاصرة، تُعرف النهاية على أنها "آخر الشيء وغايته". و أنه "جملة الأحداث التي يمر بها كائن ما، ويصدق على الفرد والمجتمع والظواهر الطبيعية وغيرها".

وأورد عبد الوهاب المسيري في كتابه نهاية التاريخ مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني "...نهاية التاريخ بالانجليزية end of history عبارة تعني أن التاريخ، بكل ما تحويه من تركيب وبساطة ، وصيرورة وثبات وشوق وإحباط ونبل وخساسة سيصل إلى نهايته في لحظة ما فيصبح سكونيا تاما خاليا من التدافع والصراعات والثنائيات والخصوصيات إذ إن كل شيء سيرد إلى مبدأ واحد يفسر كل شيء وسيسيطر الانسان سيطرة تامة على بيئته وعلى نفسه وسيجد حلولا نهائية حاسمة لكل مشاكله وآلامه...".

أصل التسمية

تعود نظرية نهاية التاريخ إلى مؤسسها فرانسيس فوكوياما، فيقول محمد سيف حيدر النقيد أنه: "في عام 1992 أصدر المفكر الأمريكي، ذو الأصول اليابانية، فرانسيس فوكوياما كتابه "نهاية التاريخ وخاتم البشر" الذي طور فيه أفكاره النظرية حول نهاية التاريخ، التي سبق أن وضع خطوطها الأولى في صيف عام 1989 في مقالة شهيرة حملت العنوان نفسه، نشرتها مجلة ذي ناشيونال إنترستThe National Interest ." فاستخدم فوكوياما كلمتي نهاية التاريخ معاً للإشارة إلى أنّ التاريخ بالنسبة له "عبارة عن خطوات التطور التدريجية والشاملة للمجتمعات والمؤسسات البشرية والسياسية والاقتصادية.

هذه العملية التاريخية تجد منتهاها في الديمقراطية الليبرالية واقتصاد السوق." والمقصود بنهاية التاريخ وفقاً للنظرية هو نهاية الأيديولوجيا وليس من الناحية الدينية، والإنسان الأخير بالنسبة له هو الذي يشعر بقيمته كإنسان ويحصل على الاعتراف به، فيصوره على أنه الذي يعيش في المجتمعات الليبرالية الديمقراطية والذي حصل على اعتراف من قبل الدولة به.

تعريف نظرية نهاية التاريخ

يشير خليل حسين صاحب كتاب "قضايا دولية معاصرة و العلاقات الدولية النظرية والواقع". أن "تأثر فوكوياما في بناء نظريته بآراء الفيلسوف الشهير هيغل واستاذه الفيلسوف ألن بلوم (1930 –1992) فيلسوفاً، أكاديمياً، وأديباً كلاسيكياً أميركياً ، حيث ربط كلاهما بين نهاية تاريخ الاضطهاد الإنساني واستقرار نظام السوق الحرة في الديمقراطيات الغربية. ذكر فرانسيس فوكوياما في مقاله الشهير 'نهاية التاريخ' شارحاً نظريته بالقول، إن ما نشهده ليس نهاية الحرب الباردة أو مرور فترة معينة لمرحلة ما بعد الحرب، وإنما نهاية للتاريخ بوضع حد للافكار الأيديولوجية في التاريخ الإنساني وانتشار قيم الليبرالية الديمقراطية الغربية." أي أنه يعارض فكرة ماركس التي تنص على أنّ نهاية تاريخ الاضطهاد الإنساني ستترافق مع إزالة الفوراق بين الطبقات .

الظروف السياسية المتزامنة لنظرية نهاية التاريخ

تزامنت نظرية نهاية التاريخ مع ظروف سياسية وفكرية مختلفة أبرزها الانحسار الأيديولوجي الذي ترتب عنه تشكل نظام عالمي قائما على الثنائية القطبية وتراجع نظام قائم على الاحادية القطبية. تجلى فيه انتشار الديمقراطية في العديد من دول العالم وانهيار الاتحاد السوفياتي. واصبحت الولايات المتحدة الأمريكية متفردة مهيمنة بقيادة العالم. فهذا ما شجع الباحثين والمفكرين إلى صياغة نظريات مستلهمة من انتصار الليبرالية وتزعم الولايات المتحدة للنظام العالمي وقيادته. فتم صياغة نظرية نهاية التاريخ انطلاقاً من هذه النزعة الأمريكية. فيقول فوكوياما في هذا الصدد: "مقالتي في نهاية التاريخ اختتمها بتساؤل ينبغي على الجميع مناقشته لأنني وعندما أنظر حولي بالعالم لا أجد بدائل قوية للديمقراطية الليبرالية في المجتمعات الحديثة على الأقل... وإذا أخبرني أحد بوجود ما يثبت عكس ذلك فسأكون سعيداً وسأقول إنني مخطئ في نظريتي ".

عناصر نظرية نهاية التاريخ

1_ إنّ الديمقراطية بشكلها المعاصر بدأت بالنمو منذ بداية القرن التاسع عشر وأخذت بالانتشار تدريجياً كبديل للأنظمة الديكتاتورية في مختلف أنحاء العالم. فيقول فوكوياما: "فمن بين الأنماط المختلفة للأنظمة التي ظهرت عبر تاريخ الإنسانية، من الملكيات والأرستوقراطيات، إلى الحكومات الدينية الخاضعة لرجال الدين، إلى الديكتاتوريات الفاشية والشيوعية في قرننا هذا، نجد أن الشكل الوحيد للحكومية الذي بقي ثابتاً لم يمس حتى نهاية القرن العشرين، هو الديمقراطية الليبرالية".

2_ إن فكرة الصراع التاريخي بين الفقراء والطبقة الارستقراطية وبين السادة والعبيد وبين الحكام والمحكومين لا يمكن أن يكون له نهاية إلا من خلال الديمقراطية والسوق الحر ولا نهاية إلا في ضل الدولة الليبرالية. التي من خصائصها ومميزاتها العقلانية وانها عامة ومتجانسة.

_ فالعقلانية تحقق الاعتراف بمختلف الأطراف.

_ وعامة توفر الاعتراف لجميع المواطنين لأنهم بشر، لا باعتبارهم أعضاء في جماعة وطنية أو عرقية أو جنسية معينة.

_ ومتجانسة بحيث تخلق مجتمعاً لا طبقات فيه يقوم على أساس إلغاء الفوارق بين السادة والعبيد.

3_ إنّ الاشتراكية أو الشيوعية لا يمكنها أن تتنافس مع الديمقراطية. أما الإسلام كنظاما أيديولوحي آخر متماسكاً وشمولي لا يبدو أن يمارس أية جاذبية خارج الأماكن التي كانت إسلامية ثقافياً منذ بدايتها.

نظرية نهاية التاريخ والديمقراطية

إنّ نظرية نهاية التاريخ تتحدث عن انتصار الليبرالية والديمقراطية، حيث يعتبر فوكوياما أنه ازدادت نسبة الأنظمة الديمقراطية وأصبحت بديلة للأنظمة الديكتاتورية بعد أن كان عددها متدني في بداية انتشارها. "وفي هذا الإطار يتحدث فوكوياما عن عناصر 'ثقافية' عدة، تنبع من حضارة الشعب، وتؤثر في إمكان إقامة ديمقراطية مستقرة وراسخة، وهي تتجلى فيما يلي:

أولاً: طبيعة الوعي القومي والعرقي والجنسي لا يمكن إقامة الديمقراطية إلا عندما يكون هناك وعي، فالمجتمعات التي تسيطر عليها النزعات لا تعترف بحقوق بعضها البعض. حيث لا تستطيع أن تؤمن الإحساس بالوحدة الوطنية وهذا ضروري بالنسبة لفوكوياما لبزوغ ديمقراطية مستقرة.

ثانياً: الدين، حيث يعتبر فوكوياما أنّ الدين هو بمثابة عقبة ثقافية لقيام الديمقراطية، وعلى الرغم من أنه أقر أنها ليست عائقاً في بعض الحالات، إلا أنه "يقطع في النهاية بأنّ الدين في حد ذاته لم يخلق المجتمعات الحرة.

ثالثاً: واقع المجتمع المدني، فيعطي أهمية له ويعتبر أنه أساسي لتعزيز الديمقراطية، فضعف المجتمع المدني أو خموله هو بمثابة عقبة أمام تحقيق الديمقراطية.

رابعا: الخبرة التاريخية بالمؤسسات الليبرالية، حيث يعتبر أن استقرار الديمقراطية مرتبط بالخبرة التاريخية المرتبطة بالمسار المتدرج لدولة ما وما شهدته من أمور تعزز الليبرالية والحريات. لذا إن انعدام أو ضآلة الخبرة يشكل عائقاً لاستقرار الديمقراطية تبعاً لفوكوياما.

نظرية نهاية التاريخ والنظام العالمي

يرى فوكوياما أنّ الديمقراطية هي الحل الأفضل للمشاكل الإنسانية، وأنّ التاريخ الغائي وتطوره أوصل إلى الديمقراطية ومؤسساتها. ويشير إلى أنّ دولة الديمقراطية ستؤمن الاعتراف المتبادل الذي يضفي التجانس وينعكس على النظام العالمي والعلاقات بين الدول. ويعتبر أن المسار التاريخي قائماً على دعامتين هما **الرغبة المتعقلة والاعتراف العقلاني وأن الديمقراطية الليبرالية هي النظام السياسي الذي يوفر الاشباع لهما والتي ستصبح أكثر قبولاً لدى الناس.** وستتجه الدول نحو تبني الديمقراطية مع أن بعضها سيواجه عقبات إلاّ أنها ستسعى للوصول ضمن هذا المسار، وعندها سيصبح العالم متشابه حيث لن يكون هناك أنظمة حكم مختلفة.

نظرية نهاية التاريخ وتقسيم العالم

"قسم فوكوياما العالم إلى قسمين

عالم ما بعد التاريخ، وهي الدول التي تعتمد على النظام السياسي الديمقراطي الليبرالي.

دول التاريخ، وهي التي لا تطبق النظام السياسي الديمقراطي.

" حيث يرى فوكوياما أن التناقضات التي أدت إلى انهيار الأنظمة الأخرى هي ليست موجودة في النظام الديمقراطي لذلك لن ينهار. و أنّ دول التاريخ أو دول "عالم الثالث" تعاني من تأخر في التصنيع وهذا ما يؤدي إلى اختلاف السلوك بين هذه الدول وسلوك الدول الديمقراطية. لذا يقسم العالم إلى شطرين، شطر تجاوز التاريخ وشطر ما زال غارقاً فيه.

وحسب فوكوياما **دول ما بعد التاريخ** ستشهد تنافساً اقتصادياً ولكن ليس عسكرياً يؤدي إلى تآكل المظاهر التقليدية للسيادة وتوحيد الأسواق والإنتاج.

أما العالم التاريخي، فسيبقى فريسة لمختلف الصراعات الدينية والقومية والأيديولوجية على قدر ما قطعته البلاد المختلفة فيه من شوط في سبيل التنمية وستظل القواعد العتيقة لسياسة القوة قائمة فيه.

يشير فوكوياما إلى أنّ الخط الفاصل بين **عالم بعد التاريخ والعالم التاريخي** يتغير، لأن هناك دول تنجح في الانتقال إلى الديمقراطية وهناك دول أخرى لن تنجح بذلك. وسيكون هناك محاور تصادم فيما بينهما.

فالمحور الأول يتجلى بالنفط حيث يرتكز انتاجه في دول التاريخ ويمكن أن تتلاعب فيه هذه الدول لأهداف سياسية وأن تزعزع الاستقرار الاقتصادي لعالم ما بعد التاريخ.

أما المحور الثاني يتجلى بالهجرة، كون ستكون لها تأثيرات على المدى البعيد. حيث تهاجر نسبة كبيرة من العالم التاريخي إلى عالم ما بعد التاريخ وذلك لأهداف عدة مثل العمل وغيره.

أما المحور الثالث يتجلى بمسائل خاصة بالنظام العالمي، حيث يعتبر أنّ عالم ما بعد التاريخ يسعى إلى الحد من انتشار بعض التكنولوجيات في العالم التاريخي كالأسلحة النووية والأسلحة البيولوجية. فيشير إلى أنّ من مصالح دول ما بعد التاريخ أن تحمي نفسها من الأخطار الخارجية وأن تسعى إلى نشر الديمقراطية في الأنظمة الأخرى.

نقد نظرية نهاية التاريخ

أشار جون غراي John Grey – فيلسوف سياسي إنجليزي مهتم بالفلسفة التحليلية والتاريخ الفكري_ إلى أنّ "النظرية تنبئ بنهاية الليبرالية، وليس نهاية التاريخ، إذ إن عصرنا هو عصر يتضاءل فيه تأثير الأيديولوجيا السياسية، سواء الليبرالية أو الماركسية على الأحداث، ويشتد فيه التنازع بين قوى عتيقة وقائمة منذ الأزل، قوى قومية ودينية وأصولية"... فيعتبر غراي أن النزاعات في العصر الحالي ستختلف، فهي لن تكون على أسس أيديولوجية وإنما دينية أو قومية أو أصولية وغيرها...

كما أنّ بعض المفكرين وجهوا انتقادات لنظرية نهاية التاريخ وحاولوا صياغة نظريات أخرى ترسم وتتوقع مستقبل العالم انطلاقاً من أسس مغايرة مثل صامويل هنتغتون ونظرية صدام الحضارات التي أعدها. حيث "لم يكن فوكوياما يفكّر في مستقبل العالم وحيداً، فأستاذه صامويل هنتغتون أثار جدلاً واسعاً عند منظّري السياسة الدولية في فكرته التي اعتُبرت بمثابة الردّ المباشر على فكرة تلميذه فرنسيس فوكوياما، إذ جادله رافضاً أن الشكل الغالب على الأنظمة حول العالم سيكون الديمقراطية الليبرالية. فقد اعتبرها هنتنغتون نظرة قاصرة ولا يمكنها أن تعيش وسط تزاحم الصراعات في العالم المعاصر." حيث بالنسبة لههنتغتون أنّ الصراع في العالم

لن يكون انطلاقاً من الأيديولوجيات وانما انطلاقاً من الاختلاف بين الحضارات مما سيؤدي إلى تصادم فيما بينها.

وكذلك يقول حسين علي: "يكرس فوكوياما هنا، وحتى يبرر ويشرعن، شكلاً آخر من أشكال التمييز العنصري، ولكن هنا ليس على صعيد بلد أو مجتمع معين، وإنما على الصعيد العالمي: فالسيد هنا هو الدولة الليبرالية الناجية والظافرة، أما العبد، المسموح له أن يكون بعيداً عن الأنظار، كي لا يزعج أحداً بأنينه، وبعد أن استنفذت قواه ونهبت ثرواته، فهو الدول الفقيرة التي لن يزيد اعتناق الليبرالية إلا فقراً، لأنها لن تحقق ما عجزت دول أمريكا الجنوبية ودول أوروبا الشرقية عن تحقيقه." فيعتبرها أنها جاءت لتكرس التمييز بين الدول الليبرالية والفقيرة وتعميق الفجوات بينهما.

لذا إنّ نظرية نهاية التاريخ والإنسان الأخير جاءت لتبلور انتصار الفكر الليبرالي، وقد ترافقت مع غيرها من النظريات التي صيغت متأثرة بروح الانتصار عقب انتهاء حقبة الحرب الباردة. ومن بين النظريات الأخرى التي جاءت بعدها كما ذُكِر آنفاً هي نظرية صدام الحضارات.